رحلة معرفة

أحلام طه

وقفت اليوم وأنا في الأربعين من عمري، عهد النضوج والخبرة، لأطوي السنين في ذاكرة الجسد، لأعود إلى منتصف العمر؛ عهد الشباب والصبا، إلى تلك الأحلام الوردية؛ لأكسر حاجز النسيان، فأؤرِّخ الماضي بقلم الحاضر، من أين بدأت؟ وإلى أين سأذهب؟ أين وصلت في مسيرتي التعليمية؟ هذه الأسئلة تدور في خلدي الآن.

بدأت حكايتي منذ نعومة أظافري في روضة الأطفال، حيث معلمتي التي منحتني العطف والرعاية والحنان والعلم، فكانت الشمعة الأولى التي أنارت دربي، فكل يوم معها معنى جديد، وكل صباح خبرة، عند دخولي ساحة الروضة، كنا نلهو ونلعب بالألعاب الترفيهية إلى أن يقرع الجرس، فنصطف للنظام وندخل الصفوف، ثم ننتقل في زوايا الصف من زاوية الألعاب إلى زاوية الفنون والرسم، ثم زاوية الموسيقى، إلى زاوية تناول الطعام.

وأخيراً، وقبل مغادرة الروضة، كنا نجلس على البساط الخمري، حول كرسي المعلمة التي بدورها تسرد لنا قصصاً مثل «ألف ليلة وليلة» بأسلوب شيق، متسلسلة بالإحداث والمغامرات. وما أن تنتهي القصة حتى نبدأ بطرح الأسئلة والنقاش لاستكشاف العبر والخبرات الجديدة ونتحلى بالقيم الحميدة.

في الختام، تطلب منا أن نعيد سرد القصة بلغتنا، ما يكسر حاجز الخوف والتردد والضعف لدينا، ويزيد من ثقتنا بأنفسنا. فمن روضتي الجميلة إلى مدرستي، حيث معلماتي القديرات، المحبات اللواتي كن خير قدوة لي، فقد كانت المعلمة أمّاً لنا بعطفها ورعايتها وحنانها، حيث كانت تسمع لهمومنا وتحل مشاكلنا، وتثني على نجاحنا، وتقدم لنا جوائز تقديرية، منها حصولي على كتاب «ماري كوري»، الذي كان له بصمة في حياتي.

ولا يفوتنني العلم الذي اكتسبته على أيديهن على الرغم من أن أسلوبهن كان تلقينياً تقليدياً يركز على مقدرة التحصيل وجمع المعرفة، لكنني لا أنكر عليهن إخلاصهن في عملهن وتقديره.

فإلى معهد الطيرة، حيث حظيت باهتمام بالغ من معلمتي سلوى البرغوثي التي ساعدتني في تأهيل نفسي وإعدادها لممارسة مهنة التعليم، من خلال المادة النظرية والعلمية المتمثلة في مادة الرياضيات. فالتربية، فالأساليب، فالإدارة، ثم لا نقف إلى هذا الحد من التخطيط إلى التنفيذ على أرض الواقع، وانتهيت بشهادة علمية تمنحني الحق في ممارسة المهنة، وكانت أول سنة في حياتي المهنية في مدرسة راهبات

الوردية.

تلك المدرسة التي اخترتها وفضلتها على غيرها، حيث كانت تدار من قبل راهبات يحترمن النظام، ويقدرن العمل، ويقبلن التغير الذي يصب في مصلحة الطالب. ما أعجبني في هذه المدرسة رئيسة قسم الرياضيات التي كانت تشرف على مسار الرياضيات في المدرسة مع معلمات الرياضيات، حيث كنا نجتمع في غرفة خاصة، نتبادل الخبرة والآراء والأفكار الجديدة ونتطلع إلى ما هو جديد من وسائل، ونطور من أساليبنا.

عملت مدّرسة رياضيات للمرحلة الوسطى، منطلقاً من إيماني أن التعليم فن وذوق وعلم، ويتطلب ذلك معرفة وثقافة وسمات شخصية مهمة ليكون المعلم ناجحاً في عمله. ومن هنا تحليت بسعة الصدر وبعد النظر، حيث كنت أنتقي الموضوع الشيق الذي يحفز الطلاب على التعلم، ويرتبط بواقع الطالب وحياته وبيئته.

ومع مرور الأيام، كانت خبرتي تزداد يوماً بعد يوم، ونجاح يكلل نجاح، وقد تبين ذلك من خلال ارتفاع التحصيل العلمي للطالبات. أجمل ما في الأمر كان تواصل المدرسة مع المجتمع المحلي من خلال مجلس الآباء والأمهات الذي كان يعقد مطلع كل شهر للنقاش مع الوالدين. وانطلاقاً من إيماني بالمادة النظرية التي درستها، شرعت بتطبيقها في الحياة العملية، حيث عملت على تقسيم الطلبة، فكل واحد حسب قدرته وكفاءته، لذلك عملت أوراق عمل لثلاثة مستويات (المتفوق، والمتوسط، والضعيف) داخل الحصة، كما عملت أوراق عمل جماعية تشجع التعاون والعمل التشاركي وروح الفريق الواحد، ما زاد الانسجام بين أعضاء المجموعة، وجعل الحصة ممتعة.

عام من العمل الدؤوب المنظم ورؤية واضحة، في جو من المحبة والوئام، ولكنني تواقة لأعود إلى مدرستي التي تخرجت منها لأمارس مهنة التعليم إلى جانب معلماتي.

وكانت مدرسة النظامية التي يفصلها شارع القدس الرئيسي عن مدرسة راهبات الوردية، حيث آمنت أن التعليم يتم عن طريق المحاولة والخطأ وبالتدريب، وبالتالي لم أستهن بإجابة أي طالب مهما كانت، وكنت أثري ورقة العمل بمختلف التمارين التي تنمي التفكير العلمي الخلاق؛ كالألغاز التي تعصف بالأفكار، ما يثير المتعلم ويستثمر أفكاره للتفكير العلمي الناقد القادر على حل المشكلات.

أيقنت أن الخبرة تأتي مع مراحل تبدأ بالملاحظة، ثم الفهم، والتفسير، فإجراء التجارب والوصول إلى النتائج ثم تحليلها والوصول إلى التعميمات والحقائق. وبالتالي، كنت أصطحب الطالبات إلى مختبر العلوم لإجراء التجارب، ومختبر الحاسوب لإجراء التطبيقات، وإلى المكتبة لاستخراج المعرفة، حيث أعطيت الأهمية للطالب في الوصول إلى الخبرة، بحيث يكون مسؤولاً عن تعلمه، وفاعلاً ونشيطاً في عملية التعليم.

وبعد عامين من العمل، شاء القدر أن أترك عملي بسبب الحاجز الإسرائيلي الذي يفصل القدس عن الضفة الغربية، وعدم قدرتي على الوصول إلى المدرسة، كوني أحمل هوية الضفة، فقدمت استقالتي لأتفرغ لأطفالي.

قررت أن أعاود مزاولة المهنة، حين أصبح طفلي في مرحلة التمهيدي التي أحبها، فتوجهت إلى مدرستي في قلنديا، مسقط رأسي، لأعمل مدرّسة رياضيات. ومع مرور الزمن ازدادت الخبرة، معتمدة على أسلوب التسلسل الشيق الذي يقود إلى الفهم والتمييز والاستكشاف، ولم أهمل الوسائل المساعدة التي كانت تثير البهجة في نفوس الطلبة وتشد انتباههم إلى التعلم مثل اللعب التربوي كالبطاقات، واللعب التنافسية، ومن التعزيز الإيجابي الذي يشجع على التوافق والنجاح، إلى الجوائز التقديرية التي تقود إلى الإبداع، كما لم أهمل دور التخطيط المنظم في عملية التعليم، إلا أنني أقول دوماً إن المعلم هو سيد الموقف، وربما لا يتقيد في خططه لتوصيل رسالته متى يشاء وكيفما استجد واستحدث.

وفي هذه الأثناء، ظهر برنامج التعليم المساند في مدارس وكالة الغوث، فاستهواني هذا المشروع. فكنت من الأوائل الذين تبنوا هذه الفكرة واشتغل في هذا المشروع.

فقد اهتممت بذوي الاحتياجات الخاصة، وعمدت على دمجهم في الصف، مهما كانت ظروفهم وإمكانياتهم العقلية ليلتحقوا بالآخرين. كنت اجتمع مع المرشدة ومعلمة الصف، لأعمل في صف مستقل مع طلاب ممن يعانون من ضعف في التحصيل. ندرس حالتهم، ونحدد نقاط ضعفهم، ثم ندرسهم من خلال كتب أعدت لهم خصيصا على يد خبراء لمحاولة النهوض بهم، وبخاصة في المرحلة الوسطى «خامس، سادس، سابع» وقد نجحنا في هذا المجال.

ومرة أخرى لم يحالفني الحظ، فتركت عملي؛ لأن قدمي كسرت أثناء العمل، وعلاجي كان يتطلب وقتاً طويلاً، ولكن لم أترك التفكير في المشروع، فعملت دراسة خاصة لتقييم تجربة التعليم المساند في فلسطين، قد أقدمها للماجستير مستقبلاً.

وبعد أن تعافيت عدت للعمل في مدرسة بيت ريما الأساسية، حيث أهلها يتباهون بالعلم والمعرفة، لذلك كانت بيئة خصبة للعطاء، فالدافعية عند الطالبات موجودة، حيث يمتلكن العلم وشغف المعرفة، لذا علمت العلوم والرياضيات بشكل تكاملي وشمولي وربطتهما

بالحياة، وبقصص واقعية، مستخدمة حقائب الرياضيات والعلوم وأفلام الفيديو.

وثمرة جهدي، كانت عندما ظهرت نتيجة امتحانات الوزارة، وحصول ثلاث طالبات على علامات كاملة، ما أسعدني. أحببت معلماتي ومديرة المدرسة كثيراً لأنهن كنّ يتنافسن في العطاء وتقديم الأفضل لتحسين مستوي التعليم، في جو من المحبة والود، وتبادل الخبرات من أجل مصلحة الطالب وتقدمه. وعلى الرغم من حبي لهذه المدرسة طلبت الانتقال إلى بلدية رافات، لأوفر الوقت بسبب بُعد المدرسة، فتم نقلي إلى يبرود، مبدئياً ومن ثم إلى رافات.

استفدت خلال فترة عملي في مدرسة يبرود من حسن إدارة المدير للمدرسة التي أدارها بشكل يقدر فيه المعلم والطالب والأهل، ويحتويهم من أجل النهوض بالتعليم نحو الأفضل.

لقد تغنينا بالماضي العربي التليد، والحاضر ها نحن فيه، والمستقبل علينا أن نعد له بالتخطيط الفعال والخطوات المنظمة التي تقود مجتمعنا إلى عالم الإبداع، ليأخذ موقعه بين البلدان الأخرى في ركب الحضارة.

لقد كان الناس وما زالوا يتساءلون من هو المتعلم:

1. من حفظ كتابه صماً ليأخذ علامة كاملة.
2. من وظف خبراته الجديدة في حياته.
3. من له القدرة على حل المشكلات.
4. من له القدرة على التواصل والتكيف بسرعة.
5. من أعد للحياة ليكون مواطناً صالحاً.

من هو المتعلم؟

في اعتقادي، علينا أن نتعدى كل هذا إلى أن نصل إلى أعلى المستويات، فالمتعلم إنسان فعال قادر على التواصل والتكييف والتغيير والتطوير والإبداع. فالعلماء والمفكرون والفلاسفة والمكتشفون والمخترعون هم رواد المجتمع وقادته. الآن أعمل في مدرسة رافات الأساسية المختلطة، فالعمل في نظري مقدس أينما كان وفي أي ظرف، ورسالته سامية؛ ولأني أبحث عن التطوير والتحديث، وأنجذب إلى كل جديد، انخرطت في مشروع اليونيسيف في نادي رافات الصديق، حيث شاء القدر أن أجتمع مع مؤسسات مميزة مثل اليونيسيف والنيزك معاً ومع خبراء ذوي باع في مسار الرياضيات، أمثال وائل كشك، ووهبة ثابت، وعماد القاسم، لنناقش ونعمل بالرياضيات داخل سياق وبأسلوب قصصي شيق، ليكون للرياضيات معنى لإثارة دافعية الطالب للتعليم، من خلال إحساس الطالب بالقصة وشخصياتها، حيث يعيش أحداثها إلى إن يصل إلى العقدة، فيحاول جاهداً إيجاد الحلول لها، ومن ثم استخراج العبر والقيم الدينية والاجتماعية والحصول على المعرفة، والمفاهيم العلمية من خلال التمثيل والتنويع في نبرات الصوت، والرسم، لربط العلم بالحياة.

وقد نجحنا في خلق ثقافة الرياضيات عن أولئك الطلبة، وتعزيز قدراتهم على التفكير العلمي الناقد، وقد قمنا بمبادرات عدة مع الطلائع برعاية مؤسسة النيزك لخدمة المجتمع المحلي، وقمنا بإصدار كتيب عن قريتنا رافات وغيرها من المبادرات البناءة.

كانت تجربة جميلة ومفعمة بالحيوية والإنتاج والخبرة والإبداع. أما الآن وجدت نفسي في الدراما في سياق التعليم مع مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، حيث تسنت لي فرصة التعرف على أرقى أنواع التعليم وهي الدراما، التي تتعامل مع الإنسان، وتوظف جميع حواسه في المعرفة، ليصل إلى تحمل مسؤولية تعلمه عن طريق الحوار، ويستطيع توظيف معرفته في حل مشكلاته، إلى ذلك الإبداع أنا تواقة. وكم ذهلت من خبرة د. لوك أبوت، الخبير البريطاني في مجال توظيف الدراما في التعليم الذي استضافه مركز القطان للبحث والتطوير التربوي في إحدى دوراته، والذي عزز لدينا العمل بروح الفريق الواحد من أجل تحقيق الهدف.

أحلام طه
مدرسة رافات الأساسية المختلطة – رام الله

من فعاليات منتدى الدراما في التعليم.